دلالات المطلع النفسية ومظاهر القيم الخلقية في معلقة الحارث بن حلزة

Psychological indications and manifestations of moral values in the commentary of Al-Harith bin Halza

إعداد

د. أبوهداية محمد إسماعيل
Dr. Abu Hedaya Muhammad Ismail
أستاذ الأدب والنقد المشارك - كلية التربية - جامعة كردفان

د.يوسف محمد توتو محمد علي
Dr. Youssef Mohamed Toto Mohamed Ali
أستاذ الأدب والنقد المشارك - كلية الآداب - جامعة السلام

Doi: 10.21608/mdad.2021.184423

الاستلام: ١٦/ ٤/ ٢٠٢١م القبول : ٢ / ٥ /٢٠٢١م

إسماعيل، أبو هداية محمد وعلي ، يوسف محمد توتو (٢٠٢١). دلالات المطلع النفسية ومظاهر القيم الخلقية في معلقة الحارث بن حلزة ، ***المجلة العربية مـــــداد*** ، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٥ (١٤)، ص ص ٥٧ – ٧٦.

دلالات المطلع النفسية ومظاهر القيم الخلقية في معلقة الحارث بن حلزة

المستخلص :

هذه الدرسة تناولت دلالات المطلع النفسية في معلقة الحارث بن حلزة ومظاهر القيم الخلقية التي تميز بها المجتمع الجاهلي حيث عُدّتْ هذه المعلقة مثالاً لدراسة جانب الأخلاق الجاهلية وأصولها التي تمثلت في العقل والشجاعة والعدل والعفّة. اتبعنا في ذلك المنهج الوصفي الاستقرائي، معتمدين في مادة دراستها على شروحات المعلقة، وأقوال النقاد قديماً وحديثاً، من النتائج التي توصلت إليها الدراسة: إنّ المعلقة في كل أبياتها تعدّ ميداناً لدراسة الأخلاق الجاهلية، وأن الحارث قد أجاد الوصف والتعبير في بلاغة عالية، وفصاحة نادرة، وأن المعلقة تعد وثيقةً أرّخت لأيام العرب، وهي مثال لما كان يحدث بين القبائل من منافرة ومفاخرة استخدم فيها الشاعر الحجة والمنطق والدهاء في عرض موقفه وآرائه، توصي الدراسة بتناول المعلقة من جوانبيها اللغوي والأسلوبي.

الكلمات المفتاحية :القيم الخلقية: moral values. المعلقات: Pendants. نفسي: psychological. دلالات: connotations. الجاهلية: pre-Islamic. المظاهر: . manifestations

ABSTRACT:

This study dealt with the psychological connotations of the Pendants of al-Harith bin Halza and the manifestations of the moral values that characterize the pre-Islamic community, as this commentary was considered an example for studying the aspect of pre-Islamic morality and its origins which were represented in reason, courage, justice and chastity. The study followed the descriptive inductive method, relying on the material of its study on the commentaries of the suspended, and the sayings of critics, past and present, from the findings of the study: The pendant in all its verses is a field for studying the ethics of ignorance, and that Al-Harith has mastered the description and expression in high eloquence, and rare eloquence And that the pendant is a document that dated the days of the Arabs, and it is an example of what was happening among the tribes of arrogance and boasting in which the poet used argument, logic and cunning in presenting his position and opinions. The study recommends dealing with the pendent

from its linguistic and stylistic aspects.

تمهيد:

الحمد لله الذي جعل اللسان عنوان عقل الإنسان، وآلة تُظهر سر الجنان وصلاته وسلامه على سيدنا محمد المرسل بالنور المبين وعلى آله الطاهرين.

تعدّ الأخلاق على اختلافها هي التي توجه وتضبط وتهيمن على اتجاهات الشعر والشعراء القدامى عند نظمهم لأشعارهم؛ لذا اعتمدت هذه الدراسة في استعراضها على تناول مظاهر القيم الخلقية ودلالات المطلع النفسية التي انتظمت معلقة الحارث بن حلزة التي نَسِمَهَا بالأنموذج لمثل هذه الدراسة، ولعلها من الدراسات الحديثة التي اعتمدت علم النفس الأدبي معياراً لنقد المطلع، كما أن المعلقة قد جمعت أخلاق الجاهليين محامدها ومساوئها، وما يميز هذه الدراسة هو جدتها في طريقة التعاطي للأخلاق حيث أن القدماء لم يعتمدوها معياراً واتجاهاً نقدياً عند شرحهم للمعلقة.

المحور الأول: الحارث بن حِلّزة ومعلقته :

أولا: ترجمة الحارث بن حلزة:

كان الحارث بن حلّزة من كبار قبيلة بكر بن وائل، شريفاً في قومه، حكيماً في أقواله، تفزع إليه القبيلة لتأخذ رأيه في الملمات والمشاكل، وقال الزوزني(الزوزني،١٩٨٣)(١): وقد شهد حرب البسوس.

لسنا نملك من أخباره ونشأته إلّا أنّه عاش في القرن السادس الميلادي، وأنّه كان معاصراً لعمرو بن كلثوم، وقد اختاره قومه ليدافع عنهم في مجلس عمرو بن هند؛ حين اختلفوا مع بني تغلب.

قال التبريزي(التبريزي،د.ت)(٢): هو الحارث بن حِلّزة بن مكروه بن بُديد بن عبد الله بن مالك بن سعد بن جُشم بن ذبيان بن كِنانة بن يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب ابن أفصَى بن دُعْمَى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن عدنان بن أدد، من أهل العراق، ولم ينقل لنا الرواة سبب تلقيب أبيه بـ(الحِلّزة)التي تعني(البغدادي،١٣٤٩)(٣): المرأة القصيرة، أوالسيئة الخلق، ولعله الحلزون، أواسم البومة، أوضرب من النبات.

أغلب الظنّ أنّ الحارث عاش في قبيلته حياة البدو، وأنّه كان أسلعاً، أي أبرصاً عندما أنشد قصيدته أمام عمرو بن هند. وربّما لولا هذه القصيدة لظلّ الحارث مجهولاً وانطوى اسمه شأن كثير ممن ولدوا في الجاهلية، وماتوا دون أنْ يخلفوا أثراً.

١- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع،دار مكتبة الحياة،بيروت،ص:٢٢٥.

٢- التبريزي(أبوزكريا يحي)،د.ت،شرح القصائد العشر،تحقيق:محمد محي الدين،ط أولى،مصر، ص:٢٥.

٣- البغدادي،١٣٤٩هـ،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،م السّعادة،القاهرة ج١،ص:٣٢٥.

أمّا ديانته فقد كانت النّصرانية على رأي الأب لويس[شيخو،١٩٠٢](٤). وكنيته[الزوزني،١٩٨٣](٥): أبوعُبيدة. ومن أبنائه: عمرو[محمد،د.ت](٦)، ومذعور[ابن قتيبة،د.ت](٧). وكانت وفاته نحو سنة[الزوزني،١٩٨٣](٨): هـ-٥٧٠م. وقد ذهب ابن الأنباري إلى أنّ الحارث أنشد معلقته وهو ابن مئة وخمس وثلاثين سنة [ابن الأنباري،١٩٦٣](٩).

قال الأب لويس شيخو[شيخو،١٩٩١](١٠): توفي الحارث سنة ٥٨٠م، وله من السنين نحو مئة وخمسين سنة.

ثانياً : معلقة الحارث بن حلزة :

تعتبر معلقة الحارث بن حلِّزة من القصائد الشهيرة في الأدب العربي، وقد تناقلها الرواة، وجاءت مجتمعة أو متفرقة في بطون العديد من المصادر التراثية العربية، وهي من أجود عيون الشعر العربي، قال عنها محمد بن سلام[الجمحي،١٩٧٤](١١): قال أبوعبيدة: أجود الشعراء قصيدة واحدة جيِّدة طويلة ثلاثة نَفَر: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وطرفة بن العبد.

وقال عنها أبو الفرج الأصفهاني[الأصفهاني،١٩٨٩](١٢): كان أبو عمرو الشيباني- يعجب لارتجال الحارث هذه القصيدة في موقف واحد، ويقول: لو قالها في حَوْل لم يُلَمْ.

لذا قال التبريزي[التبريزي،د.ت](١٣): لهذا يذهب جماعة من حَمَلَة الشعر إلى أنّه كان قد أعدّها من قبل لهذا اليوم.

وأكّدَ هذا الزعم البغدادي بقوله[البغدادي،١٣٤٩](١٤): وقال الحارث بن حلزة لقومه: إنّي قد قلتُ خُطبةً، فمن قام بها ظفر بحجَّته، وفَلَج على خصمه. فروَّاها أناساً منهم، فلمّا

٤- شيخو(لويس)،١٩٠٢،النصرانية وآدابها بيت عرب الجاهلية،المطبعة الكاثوليكية،بيروت،ص:٤٢٣.

٥- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع،ص: ٢٢٥.

٦- الميداني(أبوالفضل أحمد بن محمد)،مجمع الأمثال،ج١،دار القلم،بيروت،ص:٣٦٨.

٧- ابن قتيبة(أبومحمد عبد الله)١٩٥٢م،الشعر والشعراء،تحقيق:أحمد محمد شاكر،دار المعارف،القاهرة،ج١،ص:٢٠٠.

٨- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع ،ص:٢٢٥.

٩- ابن الأنباري(محمد بن القاسم،١٩٦٣م،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،تحقيق:عبد السلام محمد هرون،ط الخامسة،دار المعارف،القاهرة،ص:٤٣١.

١٠- شيخو(لويس)،١٩٩١،شعراء النصرانية قبل الإسلام ، دار المشرق،ص:٤١٧.

١١- الجمحي(محمد بن سلام)،١٩٧٤م،طبقات فحول الشعراء شرح:محمود محمد شاكر،ط أولى،القاهرة ، ص:٥١.

١٢- الأصفهاني(أبو الفرج)١٩٨٩،الأغاني،ط أولى ،ط دار الشعب،ج١١،ص:٤٠.

١٣- التبريزي،شرح القصائد العشر،ص:٢٦.

١٤- البغدادي،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،ج١،ص:٣٢٥.

قاموا بين يديه لم يرضَهُم. فحين علم أنّه لا يقوم بها أحد مقامه قال لهم: والله إنّي لأكره أنْ آتي الملك، فيكلمني من وراء سبعة ستور، وينضح أُثَري بالماء إذا انصرفتُ عنه، غير أنّي لا أرى أحداً يقوم بها مقامي، وأنّا محتمل ذلك لكم، فانطلق حتَّى أتَى الملك، فلمّا نظر إليه عمرو بن كلثوم قال للملك: أهذا يُناطقني، وهو لا يطيق صدر راحلته؟ فأجابه الملك حتَّى أفحمه، وأنشد الحارث قصيدته. ورُبَّما لهذا لم يروها أبوعمرو الشيباني، وأبوزيد القرشي في شرحيهما، ولم يعترفا بها باعتبارها إحدى المعلقات.

وقد اتّفق الرواة على أنّه جمع فيها ذكر عدد من أيام العرب عيّر ببعضها بني تغلب تصريحاً، وعرّض بالملك عمرو بن هند ومدحه ببعضها مدحاً كان له أبلغ الأثر.

وقال الزوزني(الزوزني،١٩٨٣)[١٥]: يُعدّ الحارث من الشعراء المقلين، وشهرته بهذه المعلقة ليس إلا، وقد جعلته في عداد الصف الأول من شعراء الجاهلية.

قال ناشر شرح الزوزني(الزوزني،١٩٨٣)[١٦]: كان الحارث عاقلاً رزيناً محنكاً ذكياً يحسن استمالة الناس وكسبهم، وإذا نزل به خطر تمالك أعصابه وعمل على رفعه، وفي معلقته معلومات تأريخية لأيام العرب، والمعلقة تعتبر قطعة رائعة في الفن الخطابي، من حيث براعته في تعيير التغلبيين في أكثر من مكان وموطن. وقد كان الحارث معتدلاً متواضعاً ليناً، عرض قضية قومه في لطفٍ ولباقة فكسب عطف الملك ورضاه.

رواياتها لا تخلو من خلاف في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، وهي أكثر القصائد التي وقع خلاف الرواة في ترتيب أبياتها، فبينما هي عند أبي جعفر النحاس، والتبريزي: خمسة وثمانون بيتاً، عند ابن الأنباري: أربعة وثمانون بيتاً، وعند الزوزني: ثنتان وثمانون بيتاً، ولم يروها أبوزيد القرشي، وأبوعمرو الشيباني اكتفى برواية نصّ الأبيات ولم يشرحها.

قد جعلها أبوجعفر النحاس القصيدة السابعة بعد قصيدة عنترة، وجعلها التبريزي السابعة بعد قصيدة عمرو، وجعلها ابن الأنباري السادسة بعد قصيدة عمرو، وجعلها الزوزني السابعة والأخيرة.

أمّا سبب نظم الحارث لقصيدة المعلقة هذه، فقد أجمع الرواة على أنّ الحارث ارتجلها أمام عمرو بن هند الذي كان من حديثه -وكان جباراً عظيم الشأن- جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهما، وأخذ من الحيين رُهُناً من كل حي مائة غلام وكفّ بعضهم عن بعض، فكان أولئك الرُّهُن يكونون معه في مسيره، ويغزون معه، فأصابتهم سَموم في بعض مسيرهم فهلك عامّة التغلبيين وسَلِمَ البكريون، فقالت تغلب لبكر بن وائل: أعطونا ديات أبنائنا فإنّ ذلك لكم لازم. فأبتْ ذلك بكر، فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم فقال

---

[١٥]- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع ،ص:٢٢٥.

[١٦]- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع،ص:٢٦١.

عمرو لتغلب: بمن ترون بكراً تَعصِب أمرها اليوم؟

قالوا: بمن عسى إلا برجلٍ من أولاد ثعلبة. قال عمرو: أرى الأمر والله سينجلي عن أحمر أصلع أصمّ من بني يشكر، فجاءت بكر بالنعمان بن هرم، أحد بني ثعلبة بن غنم، من بني يشكر، وجاءت تغلب بعمرو بن كلثوم، فلما اجتمعوا عند الملك قال عمرو ابن كلثوم للنعمان بن هرم: ياأصمّ، جاءت بك أولاد ثعلبة تُناضل عنهم وقد يفخرون عليك. قال النعمان: وعلى من أظلّت يفخرون. قال عمرو بن كلثوم: والله أنْ لو لطمتُك لطمة ما أخذوا لك بها! فقال: والله لو فعلت ما أفلَتّ بها قيس أير أبيك! فغضب عمرو بن هند، وكان يؤثر بني تغلب على بكر فقال: ياجارية أعطيه لحَياً بلسان، فقال له النعمان: أيّها الملك، أعطِ ذلك أحبّ أهلك إليك. فقال عمرو بن هند: أيسرّك أني أبوك؟ قال: لا، ولكنّي وددتُ أنّك أمي. فغضب عمرو بن هند غضباً شديداً حتى هَمَّ بالنعمان، فقام الحارث بن حلِّزة فارتجل قصيدته ارتجالاً وتوكّأ على قوسه، فزعموا أنّه انتظم بها كفَّه وهو لايشعر من الغضب.

قال أبو عبيدة[ابن الأنباري،١٩٦٣][١٧]: كان عمرو بن هندٍ شريراً، وكان يُقال له: (مضرّط الحجارة) لشدّته، وكان لا ينظر إلى أحد به سُوء، وكان الحارث ينشده من وراء الحجاب؛ لأنّه أوضح، أي أبرص. فلما أنشده القصيدة أدناه حتى خلص إليه؛ لأنّ هنداً كانت تسمع، وقالت: تالله مارأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول، ويُكلَّم من وراء سبعة ستور! فقال الملك: ارفعوا ستراً. ودنا. فما زالت تقول، ويرفع سِتْر فستر، حتى صار مع الملك في مجلسه.

أضاف الأصفهاني[الأصفهاني،١٩٨٩][١٨]: ثمّ أطعمه من جَفنته، وأمر ألا يُنضح أثره بالماء، وجزّ نواصي السبعين الذين كانوا في يديه من بكر، ودفعها إلى الحارث، وأمره إلا ينشِد قصيدته إلا متوضّئاً، أي متطهّراً.

يقال[ابن الأنباري،١٩٦٣][١٩]: إنّ الحارث عندئذ كان طاعناً في السِّن فوق المائة، ونرى أثر السِّنّ ونضوجها وحكمتها وحلمها ووقارها في القصيدة واضحاً حيث ردّ على تغلب في أناة وهدوء وحملها تبعة الحرب، واستدرج الملك ليكون في جانب قومه فمدحه ومدح قومه، فكان أكثر حكمة وعقلاً، فقد استطاع الوصول إلى غرضه بالحيلة، والدهاء، والإيماء. بخلاف منافسه عمرو بن كلثوم الذي كان في قصيدته أعزّ نَفْساً، وأعلى قَدْراً، فوضع نفسه وقومه موضع النّدّ لعمرو بن هند.

لهذه المعلقة قيمة مزدوجة[التبريزي،د.ت][٢٠]: تأريخية وأدبية، فأمّا القيمة التأريخية

١٧- ابن الأنباري،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،ص:٤٣١.

١٨- الأصفهاني(أبو الفرج)،الأغاني،ج١١،ص:٤٠.

١٩- ابن الأنباري،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،ص:٤٣١.

٢٠- التبريزي،شرح القصائد العشر،ص:٢٦.

فتكمن فيما تفيدها عن المعارك بين تغلب وكندة، وتغلب والعباد، وتغلب وبني عتيق، وتغلب وقضاعة، وتغلب وإياد، وتغلب وتميم، وفي كل هذه المواقع كانت الغلبة على تغلب.

أمّا قيمتها الأدبية فنجدها في دقّة الوصف، وحسن السبك، وتنوع طرق التعبير، وبلاغة الإيجاز، وجودة التقسيم والمنطق، وحسن الإشارة.

القصيدة من الخفيف، وقافيتها من المتواتر، ويقول في مطلعها(حلزة،١٩٩١)(٢١):

آذَنَتْنا ببَيْنِها أَسْمَاءُ ربَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ ٱلْثَّوَاءُ

هي معلقة الإحساس بالغضب، وحواره الساخن مع العدو، ودحض حججه وفق شعور نفسي من حرارة الاحساس، وتمثّل الطرف الثاني من المفاخرة والمناظرة التي جرت بين قبيلتي: تغلب وبكر عندما احتكمتا إلى الملك عمرو بن هند. وقد مثّل طرف الفاخرة الثاني الحارث بن حلزة، الشاعر الحكيم، والسياسي المحنّك، والمحامي البارع.

وقد أجمع الرواة على أنّ الشاعر قد ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً، غير أنّ هذا القول لم يقبل به بعض الباحثين في عصرنا الحديث، وقد شك فيه بعضهم بقوله: "فيكفي أنْ تقرأ هذه القصيدة لترى أنّها ليست مرتجلة ارتجالاً، وإنّما هي نُظمتْ، وفكّر فيها الشاعر تفكيراً طويلاً، ورتّب أجزاءها ترتيباً دقيقاً"(حسين،د.ت)(٢٢). وردّ بعضهم القول بالارتجال"إلى رغبة الرواة في مساواته بعمرو بن كلثوم الذي قيل إنّه ارتجل جزءاً من معلقته بين يدي عمرو بن هند"(حلزة،١٩٩١)(٢٣).

وما يهمنا أنّه "أنشدها في حضرة الملك ردّاً على عمرو بن كلثوم، وغضباً لقومه"(الزوزني،١٩٨٣)(٢٤).

المحور الثاني : دلالات مطلع معلقة الحارث النفسية :

المطلع هو:(حنفي،١٩٨٧)(٢٥) "أول ما يواجه السامع من القصيدة، وهو بهذا الاعتبار يحتل الاهمية الأولى من عناصرها، فهو بمثابة العنوان، والمدخل إلى القصيدة، فلابد أن يضمّنه الشاعر أجود المعاني، وأحسن الصياغة".

نال المطلع اهتماماً من علماء الأدب ونقده قديماً وحديثاً، فقديماً اهتموا بنقد

٢١- حلزة(الحارث)،١٩٩١م،ديوان الحارث،تحقيق:إميل بديع،ط أولى،دار الكتاب العربي،بيروت،ص:١٩.

٢٢- حسين(طه)،في الأدب الجاهلي،ط ١١،دار المعارف،مصر، ص:٢٢٤.

٢٣- حلزة(الحارث)،١٩٩١،ديوان الحارث بن حلزة،ص:٦.

٢٤- الزوزني(١٩٨٣م)،شرح المعلقات السبع ،ص:٢٢٥.

٢٥- حنفي(د.عبد الحليم)،١٩٨٧،مطلع القصيد العربية ودلالته النفسية،الهيئة العربية للكتاب،ص :٥٣.

المطالع لذاتها، من حيث الجودة، والرداءة، وعقدوا فصولاً خاصة في الموازنة بين مطالع الشعراء، وكان اهتمامهم بها أوضح من اهتمامهم بالعناصر الأخرى في القصيدة، "يرى بعضهم أن بمقدار جودة المطلع يكون تأثير القصيدة في النفوس،... وهنالك اتجاه آخر يرى أن المقدمة كلها بما فيها المطلع هي تعبير عن وجدان الشاعر ونفسيته وموقفه إزاء الكون والحياة، أي ينحو بالمقدمة منحى فلسفياً يتنهي إلى موقف ديني" (حنفي،١٩٨٧)(٢٦). وحديثاً شغل مطلع القصيدة الجاهلية الباحثين والنقاد شغلاً واضحاً، حتى دفع بعضهم إلى متاهات من التفكير والتخمين، والتجني على الشعر القديم، كدعوى فقدان الوحدة العضوية في القصيدة القديمة.

النقد القديم ركز على الشعر دون ربطه بنفسية الشاعر، والاتجاه السائد هو أن المطلع مع أهميته في القصيدة لا يخرج عن نطاق غرض القصيدة ومضمونها، ليس من ناحية الموضوع، إنما من ناحية الدلالة النفسية للمتلقي، كأن الشاعر يهدف به إلى فتح شهية المخاطب لسماع قصيدته والانفعال بها، لكن المعنِّي بدراستنا هذه ليس المخاطب ونفسيته وشهيته وانفعاله؛ وإنْ كان له دوره ومكانته في إنشاء القصيدة، بل المقصود بها الشاعر في ذاتيته ونفسيته، أي ربط الشعر بنفسية الشاعر، وليس بنفسية المخاطب بالشعر والمتلقي. "فأصبح النقد النفسي يربط بين مطلع القصيدة ومدى علاقته بنفسية الشاعر وتعبيره عنها، من يأسٍ وحيرة وقلقٍ. فهذا الاتجاه يرى أن مقدمة القصيدة تقوم على أساس أنها تعبير عن ذات الشاعر وأفكاره وواقعه".(حنفي،١٩٨٧)(٢٧).

في شكل رزين ثابت يناسب سنوات عمره المهيبة، جاءت معلقة الحارث، رداً على الخطابة الرنانة المفرطة لخصمه عمرو بن كلثوم. مع ذلك، لا يتردد في أن ينسب إلى قبيلته كل الفضائل التي ينبغي أن يتصف بها العرق النبيل.

لا يأتي الحارث بن حلّزة إلاّ بعض ذلك الصنيع حيث يبتدئ بوصف الطلل، والتثنية بوصف حبيبته أسماء، قبل الانتهاء إلى وصف الناقة التي يخرج منها إلى وصف الحرب وشدائدها وأهوالها.

إذا أردنا أن ننظر إلى نفسية الشاعر حين افتتح قصيدته، وهل يتضمن مطلع قصيدته موقفاً نفسياً خاصاً؟(حلزة،١٩٩١)(٢٨).

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ ٱلْثَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمّا ... ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا ٱلْخَلْصاءُ
فَالْمحَيَّاةُ فالصّفاحُ فَأَعْنا ... قُ فِتَاقٍ فَعادِبٌ فَالْوَفَاءُ
فَرِياضُ ٱلْقَطَا فأَوْدِيَةُ الشُّرْ ... بُبِ فالشُّعْبَتَانِ فالأَبْلاءُ

٢٦- المرجع نفسه، ص:٤٩.
٢٧- المرجع نفسه،ص:٦٣.
٢٨- حلزة(الحارث)،١٩٩١،ديوان الحارث بن حلزة،ص:٢١.

إن:(حنفي،١٩٨٧)(٢٩)"الملابسات التي حدت بالشاعر إلى إنشاء القصيدة ملأت نفسه بشعور اللوم على الملك الذي أراد أن يحط من شأن قبيلة الشاعر(بني بكر)، ليرفع من شأن أعدائهم(بني تغلب)، فلوم الملك، والدفاع عن بني بكر تعهدهما الشاعر منذ افتتاح النص حتى نهايته، فرمز للملك بالمرأة التى يهواها وخانت عهوده، والتي يريد أن يبكيها أحر البكاء، وهي التي أمامه ولا يستطيع الوصول إليها، فجعل كل ذلك تصريحاً لا خفاء فيه، حيث أسماء أعلنت الفراق، بل آذنته به، فالديار خلت ممن يحب، فهو يبكي بكاء يكاد يذهب العقول دون جدوى.

لا أرى مَنْ عَهِدْتُ فيهَا فأبكي أَلْـ ـيَوْمَ دَلْهاً وَمَا يُجِيرُ ٱلْبُكَاء

ظهور المرأة الأخرى المخادعة والماكرة في دائرة الصراع الواقعي والنفسي، والتي رمز لها بهند، لدليل آخر على حاجته إلى الدفء بنار يحسبها قريبة وحين يمعن النظر يفاجئ بأنها بعيدة .

وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدَتْ هِنْدٌ ٱلْنَّا رَ أَخِيراً تُلْوِي بِها ٱلْعَلْيَاءُ
فَتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعيدٍ بِخَزَا زَى هَيْهاتَ منْكَ الصَّلاءُ

يحسّ بحاجة قومه إلى إنصاف الملك، فأبيات المطلع كلها تدور حول معنى اللوم والعتاب للملك، في أكثر من موضع في القصيدة :

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ

ويتكرر الخطاب في سياق آخر:

أَيُّها الناطِقُ الْمُبلِّغُ عَنا عندَ عَمْرٍو وَهَلْ لذَاكَ انْتِهَاءُ

هو يعتقد أن تغير نفسية الملك نحوهم نتيجة لوشاية، وهو أسلوب رفيع ومهذب في اللوم والعتاب، وإلتماس العذر، ومد يد الود والوصل بينهم وبين الملك علّه يعود إليهم. وتسير القصيدة على هذا النسق، معاتبة الملك، والدفاع عن قومه وتبرئتهم من كل إساءة تحط من شأنهم.

فالبيت الأول من القصيدة يعتبر هو المفتاح النفسي للقصيدة، لاشتماله على ما يملأ نفس الشاعر من عتاب ولوم للملك، في رمزية قلّ ما توصف بالجمال والجودة.

إذن، فقد نَبَّه النقاد القدماء لعلة ابتدا القصائدِ بذكر الديار، ووصف الدمن، والوقوف على الربوع يبكون عليها، ويشكون من تَحَمُّل أهلها عنها، ومزايلة الأحبة إياها "فيذكرون الأيام الخوالي، الأزمنة الماضية؛ وما كانوا نَعِموا به فيها من اللحظات السعيدات، مع الحبيبات الوامقات: إمّا بالنظرات وإما بتبادل أسقاط الحديث وإمّا بنيل أكثر من ذلك منهنّ... فيذكرون كلّ ذلك فتذرف منهم العيون، وتهيم بهم الصبابة، وترتعش في أعماقهم العواطف، وتلتعج في قلوبهم المشاع، فينهال عليهم الشعر الجميل،

٢٩- حنفي(د.عبد الحليم)،١٩٨٧،مطلع القصيد العربية ودلالته النفسية،ص:١١٨.

كما تنهال من أعينهم الدموع الغزار حتى تبلّ محامِلَهم"(مرتاض،١٩٩٨)(٣٠).

المحور الثالث : مظاهر القيم الخُلقية في المعلقة :

المتفق عليه عند أدباء ونقاد العصر الحديث: أنّ الأدب هو ابن البيئة التي نشأ فيها والمجتمع الذي انطلق منه ليعبّر عن حاجات وميول ورغبات وتطلعات ذلك المجتمع، " فالمبدع كائنٌ اجتماعي يتشكل وعيه في إطارٍ اجتماعي، وتحكمه قوانين البيئة المحيطة فتنعكس مؤثرات البيئة في العمل الإبداعي المُشكّل"(إسمَاعيل،٢٠٠١)(٣١). فأي نشاط إنساني يعود في الأصل إلى ما ورثه الإنسان من قيم وأعراف وأخلاق من أبائه وأجداده.

لذلك مثلت الأخلاق مركز الشعر الجاهلي، فلها يعيشون وعنها يصدرون، فالشعر الجاهلي ما وجد في الأصل إلا للتغني بمكارك الأخلاق والشيم، وما القصيدة الجاهلية إلا وسيلة الشاعر للتعبير عن مذهبه في الحياة، وما يعتقده، ويؤمن به. وقد عُدّتْ الأخلاق قاعدةً لانطلاق الشعر والشاعر، فأصبح لزاماً على الشاعر حتى ينال قدره العالي، ومكانته الرفيقة أن يتمثلها في قصيدته، وما نالته المعلقات من مكانة إلا لأنها مجدت أخلاق الجاهليين، فالشاعر الجاهلي استطاع أن يجعل من الشعر والأخلاق وسيطاً نقل من خلاله ما يراه ويؤمن به ويعيشه في مجتمعه، وقد فرضت بيئة الشاعر ومجتمعه نمطاً من الأخلاق يتراوح بين الحسن والقبح، وهذا ما جمع بين شعراء الحقبة الجاهلية ، فقد حرصوا على إظهار ما يميزهم من أخلاق، وما يُعلي قدرهم من فضائل، فلكي نصل إلى هدف الشاعر ومقصده من نصه الشعري الجاهلي فلابد من أن ندرس الأخلاق بوصفها مفتاح قراءة القصيدة الجاهلية.

لن نقسّم المعلقة إلى أقسام متفاوتة بحسب الموضوعات كما تعارف عليه الباحثون، وذلك؛ لأنّ الغاية من وراء الدراسة تأخذنا إلى غير هذا الاتجاه، وبعيداً عن طريق التقسيم الموضوعي لنصّ المعلقة. و"إيماناً منّا بأن المعلقة عبارة عن كلّ لا يتجزأ، تجمعها ظاهرة واحدة، وهي ظاهرة الحزن المسيطر على النصّ من أوله إلى آخره، والتي كشفتْ لنا نفس الشاعر، وعرّت أخلاقه، وأظهرت طبعه الإنساني الحقيقي، فسوف نجعل من الفضائل الأربعة التي تمثل الوسط الخُلُقي المحمود والطرفين المرذولين محوراً لدراستنا"(الغامدي،١٤٢٧)(٣٢).

٣٠- مرتاض(عبد الملك)،١٩٩٨،السبع المعلقات،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،ص:٦٤.

٣١- إسماعيل(عبد العليم محمد)،٢٠١١م،ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث،ط أولى،دار الفكر العربي، القاهرة،ص:٢٧٠.

٣٢- الغامدي(محمد عبدالله)،١٤٢٧،الجانب الخلقي في المعلقات العشر،رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى كلية اللغة العربية،ص:١٢٢.

كنا نأمل أنْ نجعل الدراسة في الإطار الخُلقي للمعلقة وتحديده عبر تناولها مرتبة بحسب روايتها المتفق عليها بين الرواة(من أولها إلى آخرها)، ولكنّ بعد التدقيق أثناء القراءة وجدنا أنّ المظاهر الخُلقية المشتركة بين الفضائل متناثرة ومتداخلة ومتنوعة في أبيات المعلقة الواحدة، فصعب علينا الأمر. فكان لزاماً علينا أنْ نجد معياراً آخر أكثر منطقية، وأقرب إلى كشف خبايا تلك الظاهرة، وبما أنّ الدراسة تدور حول المكارم والمحامد والفضائل في معلقة الحارث فقد اتخذنا أصول الفضائل الأربعة: (العقل، والشجاعة، والعفة، والعدل) أُطراً يندرج تحت كلّ منها مظاهره الخُلُقية الخاصة به.

فقدامة بن جعفر جعل لكل فضيلة وخلق أقسام بقوله(جعفر،د.ت)(٣٣):

- من أقسام العقل: ثقابة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والصدع بالحجة، والعلم، والحِلم، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى. ومن اعتدال قوة العقل يحصل(محمود،١٤١٨)(٣٤): حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظنّ، والتقطن لدقائق الأعمال وخبايا آفات النفس. ومن إفراطها تصدر: الخسّة واللؤم، والمكر، والخداع، والدّهاء. ومن تفريطها يصدر: البله، وقلّة التجربة.

- من أقسام الشجاعة: الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة والقفار. ومن اعتدال قوة الشجاعة يصدر: الكرم، والجدة والشهامة، وكسر النفس والاحتمال، والحلم والثبات وكظم الغيظ، والوقار، والتودد، وأمثالها. ومن إفراط الشجاعة يحدث: التهور، فيصدر عنه: الصلف، والبذخ، والكبر والعجب. ومن تفريطها يحدث: المهانة والذّلّة والخساسة، والجزع، وصغر النفس، والانقباض عن تناول الحق والواجب.

- ومن أقسام العدل: السماحة، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقِرى الأضياف، وما جانسه ذلك. وليس له إلا مقابل واحد، وضدّ واحد، وهو الجور.

- ومن أقسام العفّة: القناعة وقلّة الشره، وطهارة الإزار وغير ذلك. : ومن اعتدال العفة يصدر: السخاء، والحياء، والصبر والمسامحة، والقناعة والورع، واللطافة والمساعدة، والظُرف وقلّة الطمع. ومن الإفراط في العفّة يحدث: التقصير، والرياء والملق، والتذلل للأغنياء. ومن التفريط فيها يحدث: الشّره، والوقاحة، والتبذير، والمجانة، والحسد والشماتة، واستحقار الفقراء.

٣٣- جعفر(قدامة)،د.ت،نقد الشعر ،تحقيق:محمد عبد المنعم خفاجي،ط ثانية،دار الكتب،بيروت،ص:٦٥-٦٦.

٣٤- محمود(علي عبد الحليم)١٤١٨هـ،التربية الخلقية،ط أولى،دار النشر والتوزيع الإسلامية،القاهرة،ص:٣٢-٣٣.

وانظر: الغامدي(محمد عبدالله)،١٤٢٧،الجانب الخلقي في المعلقات العشر،ص:١١٦-١١٧.

فالفضيلة بصفة عامة هي: "وسط محمود لكنّ طرفيها مذمومان، ولكلّ منها متمم عرضي أوجسمي"(محمود،١٤١٨)(٣٥)، فالاعتدال في كلٍّ فضيلة محمودة وحسنة، ولكنّ الأفراط في الفضيلة أوالتفريط فيها مذمومان وقبيحان.

وقد اشتملت معلقة الحارث على كثير من المظاهر الخُلقية التي بدورها مثّلتْ الأطار الخُلقي لأصول الأخلاق الأربعة.

أولاً : العقل :

فقد طغتْ مظاهره على بقية مظاهر الأصول الثلاثة الباقية؛ لأنّ الموقف المسيطر على جوّ المعلقة بصفة عامة حتّم على الشاعر أنْ يبدو فيها -على الهدوء البادي- "داهيةً استطاع أن يدافع عن قبيلته، ويبيّض وجهها، ويسُلّها من الفتنة كما تسلّ الشعرة من العجين، ويبرّئها من كلّ ما كانت متّهمة به في علاقتها بملك الحيرة في مسألة الرهائن... فحكمته لا تتمثّل في سوق الأقوال، وضرب الأمثال؛ كما جاء ذلك عند طرفة وزهير، ولكن في الجدال والمساءلة والاحتكام إلى العقل"(مرتاض،١٩٩٨)(٣٦)، وقال آخر: "المعلقة نموذج رائع للشعر الخطابي والسياسي"(قميحة،(٣٧)، وقد تمثّلتْ مظاهره في الآتي:

السياسة :

معلقة الحارث "تبدو كأنّها خطبة ألقاها داهية من دهاة السياسة، أو مرافعة قانونية أعدّها محامٍ بارع يعرف كيف يدافع عن حقّه، وعن حقّ من ندبوه، ويعرف كيف يدحض باطل الخصم بالحجّة مرّة وبالتعريض ثانية، وبالتحريض أخرى... وكان عمرو بن كلثوم ذلل بعض الصعاب لخصمه اليشكري، فقد أفرط في عجرفته أمام ابن هند، وتجاوز الحدّ، وفخره وإنْ استند إلى وقائع لا يمكن أنْ يلقى القبول عند ملك يرى نفسه فوق الخصمين"(طليمات،د.ت)(٣٨).

من صورها:

١- التعريض بالخصم :

أَيُّهَا النَّاطِقُ المُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ
لا تَخَلْنَا على غَرَاتِكَ إنَّا قَبْلُ ما قَدْ وَشَى بِنَا الأعْدَاءُ

٢- التأدب ورعاية حرمة الملك بفخر لا يزعجه :

٣٥- محمود(علي عبد الحليم)١٤١٨هـ،التربية الخلقية،ص:٣٤.

٣٦- مرتاض(عبد الملك)،١٩٩٨،السبع المعلقات،ص:٣٤.

٣٧- قميحة(مفيد)،شرح المعلقات العشر،ص:٣٣٨.

٣٨- طليمات(غازي)،د-ت،الأدب الجاهلي قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،ط أولى،دار الإرشاد،دمشق،ص:٤٣١.

فَملَكْنا بذلكَ النّاس حتّى مَلَكَ المُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماءِ
وَهو الرَّبُّ والشَّهيدُ على يَوْ مِ الحِيَارَينِ وَالْبلاء بَلاءُ
مَلِكٌ أَضْرَعَ البَرِيَّةَ لا يُو جَدُ فِيها لِما لَدَيْهِ كِفَاءُ

٣- المعرفة بالتاريخ والاستفادة منه في كسب القضية :

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيّامَ يُنتَهَبُ الْنا سُ غِوَاراً لِكُلّ حَيّ عُوَاءُ
إِذْ رَفَعْنَا الجِمالَ مِنْ سَعَفِ البَحْـ ـرَينِ سَيْراً حتَّى نَهاهَا الحِساءُ
ثم مِلْنا على تَميمٍ فأَحرَمْـ ـنا وَفِينا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ
لا يُقيمُ الْعزِيزُ بالبَلَدِ السَّهْـ ـلِ وَلا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ

وقوله :

مَنْ لَنا عِندهُ مِنَ الخَيْرِ آيا تٌ ثلاثٌ في كِلّهِنَّ القَضَاءُ
آيَةٌ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا ءَتْ مَعَدٌّ لِكُلّ حَيّ لِوَاءٌ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِين بَكَبْـ ـشٍلا قَرَظِي كَأَنَّهُ عَبْلاءُ
وصَيتٍ مِن العواتِكِ لا تَنـ ـهَاهُ إلا مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ
فَرَدَدْنَاهُمُ بطعْنٍ كما يَخْـ ـرُجُ مِنْ خُرْبَةِ المَزادِ المَاءُ

الصدع بالحجّة : من صورها :

١- استقصاء الحقائق :

أَيُّما خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّوهـ ـا إِلَيْنَا تُشْفَى بها الأَمْلاءُ
إِنْ نَبَشْتُمْ مابَيْنَ مِلْحَةَ فَالصَّا قِبِ فِيهِ الأَمْوَاتُ وَالأَحْياءُ
أَوْ نَقَشْتُمْ فالنَّقْشُ يجْشَمُهُ النَّا سُ وَفِيهِ الإِسْقَامُ وَالإِبْرَاءُ

٢- رمي الخصم بخصال ذميمة :

أ- منها الجهل :

وَأَتَانَا مِنَ الحَوَادِثِ وَالأَنْبَا ءِ خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنسَاءُ
إِنَّ إِخْوَانَنَا الأَرَاقِمَ يَغْلُو نَ عَلَيْنا، في قِيلِهِمْ إِخْفَاءُ
يَخْلِطُونَ البَرِيءَ مِنَّا بذِي الذَّنْـ ـبِ وَلا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الْخَلاءُ
زَعَمَوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مُوَالٍ لَنَا وَأَنَّا الوَلاءُ

ب- الكذب :

أَيُّها الناطِقُ المُبَلِّغُ عَناعنـ ـدَ عَمْرٍو وَهَلْ لذَاكَ انْتِهَاءُ
إِنّ عَمراً لَنا لَدَيْهِ خِلالٌ غَيْر شَكِّ في كُلِّهِنَّ البَلاء

ج- الغدر :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءَ فلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لُهمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَصْـ ـهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ

٣- دعوة الخصم بالحكمة إلى ترك الظلم :

فاتْرُكوا البَغِي والتَّعَدّي وَإِمَّا تَتَعَاشَوْا فَفي التَّعاشِي الدَّاءُ

٤- تحقير الخصم والسخرية اللاذعة منه :

أَعَلَيْنا جُناحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْـ ـنَمَ غازِيهِمُ وَمِنَّا الجَزَاءُ
أَمْ عَلَيْنا جَرَّى حَنيفَةَ أَمْ مَا جَمَّعَتْ مِنْ مُحارِبٍ غَبْرَاءُ
أَمْ جَنَايَا بَني عَتيقٍ فَإِنَّا مِنْكُمُ إِنْ غَدَرْتُمْ بُرآءُ
أَمْ عَلَيْنا جَرَّى قُضاعَةَ أَمْ لَيْـ ـسَ عَلَيْنا فيما جَنَوْا أَنْدَاءُ
أَمْ عَلَيْنا جَرَّى إِيَادٍ كما نِيـ ـطَ بِجَوْزِ المُحَمَّلِ الأَعبَاءُ

"يبدو أنّ الغضب قد تملكه من سلك خصومه فشرع يسرد بعض مخازيهم تعييراً لهم وتحقيراً لشأنهم بأسلوب استفهام فيه سخرية لاذعة قائلاً : إذا كانت كندة قد غزت تغلب وقتلتْ منهم وسبتْ فهل يغنمون هم، وندفع نحن الجزاء؟. وهل علينا في العهود التي بيننا أنْ تأخذونا بذنوب حنيفة وما فلعتْ بكم لصوص محارب؟.

هل علينا جنايات بني عتيق؟ وإنّا لنبرأ من كل غادر، وهل علينا جريرة العباد فنحمل نحن الأعباء؟ وهل علينا إثم ما فعلتْ بكم قضاعة؟ وهل علينا ذنب إياد كما أُخذ طسم بذنب أخيه جديس؟" (الجندي،١٤١٢)(٣٩).

وكلّ تلك الوقائع هُزم فيها التغلبيين في وضح النهار ولم يُؤخذوا على حين غرّة كما يفعلون هم بخصومهم، فأيّ ذلّة وأيّ تحقير وأيّ سخرية وضع الحارث فيها بني تغلب.

ثانياً : الشجاعة :

من مظاهرها في معلقة الحارث:

الوفاء :

" كان الوفاء من الأخلاق الأصلية عند العرب، فالرجل منهم قد ينطق بالكلمة فتصبح عليه عهداً لابد أنْ يفي به، وإلا عرّض شرفه للتجريح، وكان الغدر معرة يتجافون عنه، وإذا ما غدر أحدهم رفعوا له اللواء بسوق عكاظ ليشهّروا به"(الضبي،(٤٠).

من صوره :

٣٩- الجندي(علي)١٤١٢، في تاريخ الأدب الجاهلي.دار التراث.المدينة المنورة،ص:٣٢٦.

٤٠- الضبي(المفضل)المفضليات،ص:٤٥.

١- التعلّق بالأحباب :

آذَنَتْنا ببَيْنِها أَسْمَاءُ ربَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
آذَنَتْنَا بِبَينِها ثُمّ وَلَّتْ ليت شِعري متى يكونُ اللقاءُ؟

٢- الحنين والإخلاص للديار :

"إحساس يهتف بالحنين والشوق سواء كان لطلل، أو كان لشباب، أولنمط من الحياة الناعمة التي أحاطتها أحداث وتقلّبات صيّرتْ الشاعر في حال غير هذا الحال"(أبو موسى،(٤١)).

بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمّا ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الخَلْصاءُ
فَالمُحَيَّاةُ فالصّفاحُ فَأَعْنا قُ فِتَاقٍ فَعاذبٌ فَالوَفَاءُ
فَرِياضُ القَطَا فأُوْدِيَةُ الشُّ بُبِ فالشُّعْبَتَانِ فالأَبْلاءُ

٣- الحرقة والجوى برحيل الأحبّة :

لا أرى مَنْ عَهِدْتُ فيهَا فأبكي الـ ـيَوْمَ دَلْهاً وَمَايُحِيرُ البُكَاءُ؟
وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدَتْ هِنْدٌ النَّا رَ أَخِيراً تُلْوِي بِها العَلْيَاءُ
فَتَتَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعيدٍ بِخَزَازَى هَيْهاتَ منْكَ الصَّلاءُ
أَوْقَدَتْها بَينَ العَقِيقِ فَشَخْصَيْـ ـنِ بِعُودٍ كما يَلُوحُ الضِّيَاءُ

٤- نصرة الملك وذوي القربة :

آيَةٌ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا ءَتْ مَعَدٌّ لِكُلِّ حَيٍّ لِوَاءٌ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِين بَكَبْشٍ قَرَظِي كَأَنَّهُ عَبْلاءُ
وصَيتٍ مِن العواتِكِ لا تَنـ ـهَاهُ إِلا مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ
فَرَدَدْنَاهُمُ بطعْنٍ كما يَخْـ ـرُجُ مِنْ خُرْبَةِ المَزادِ المَاءُ

الصبر : من صوره :

١- العزم :

غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ على الهَمِّ إذا خَفَّ بالثَّوِيِّ النِّجاءُ
بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمُّ رِئَالٍ دوّيَّةٌ سَقْفاءُ
آنَسَتْ نَبْأَةً وَأفزَعَها القُـ ـناصُ عَصْراً وقَدْدَنَا الإمْساءُ
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالوَ قْعِ مَنِيناً كأَنَّهُ إهْبَاءُ
وَطِراقاً مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ سَاقِطَاتٌ أَلْوَتْ بها الصَّحْراءُ
أَتَلَهَّى بها الهوَاجِرَ إِذْ كُلْـ ـلَ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْياءُ

٢- الثبات وقوة التحمّل :

فَبَقِينا على الشَّنَاءَةِ تَنْمِيـ ـنا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعْساءُ

٤١- أبوموسى(محمد محمد)،قراءة في الأدب القديم،ص:٣٦٥.

قَبْلَ ما اليَوْمِ بَيَّضَتْ بعُيُونِ النَّـ ـاسِ فيهَا تَغَيُّظٌ وَإِبَاءُ
وَكأَنَّ المَنُونَ تَرْدِي بنَا أَرْ عَنَ جوْناً يَنْجَابُ عَنْهُ العَماءُ
مُكْفَهِرّاً على الحوَادِثِ لا تَرْ تُوهُ للدَّهْرِ مُؤَيَّدٌ صَمَّاءُ

قوله مؤكداً ثبات قلوبهم وعلو همّتهم في المعارك :

مَا جَزِعنا تَحْتَ العُجاجَةِ إذا وّلـ ـوا شِلالاً وَإِذْ تَلظَّى الصَّلاءُ

- علو الهمّة : ومن صوره :

١- الإباء والشمم :

فَبَقِينا على الشَّنَاءَةِ تَنْمِيـ ـنا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعْساءُ

٢- النكاية بالأعداء :

وصَبَيتِ مِن العَواتِكِ لا تَنـ ـهَاهُ إلا مُبْيَضَّةُ رَعْلاءُ
فَرَددْنَاهُمُ بطعْنٍ كما يَخْـ ـرُجُ مِنْ خُرْبَةِ المَزادِ الَماءُ
وحَمَلْنَاهُمُ على حَزْمِ ثَهْلا نَ شِلالاً وَدُمِّيَ الأَنْسَاءُ
وجَبَهْناهُمُ بطعْنٍ كما تُنْـ ـهَزُ في جَمَّةِ الطّوِيّ الدِّلاءُ
وفَعلْنا بِهِمْ كما عَلَمِ اللهُ ومَا إنْ للحَائِنينَ دِمَاءُ

من أوضح صور النكاية بالأعداء قوله :

وجَبَهْناهُمُ بطعْنٍ كما تُنْـ ـهَزُ في جَمَّةِ الطّوِيّ الدِّلاءُ

٣- النجدة والشهامة :

وفَكَكْناُ غُلَّ امرئ القيسِ عنْـ ـهُ بَعْدَما طَالَ حَبْسُهُ والعَناءُ
وأَقَدْنَاهُ رَبَّ غَسَّانَ بالمُنْـ ـذِرِ كَرْهاً إذْا لا تُكالُ الدِّماءُ
وأَتَيْناهُمُ بِتِسْعَةِ أَمْلا كٍ كِرَامٍ أَسْلابُهُم أَغْلاءُ

ثالثاً : العدل :

من مظاهره : حفظ العهود :

وَاذكُرُوا حِلْفَ ذي المَجازِ وما قدّمَ فيهِ العُهُودُ وَالكُفَلاءُ
حَذَرَ الجَوْرِ وَالتَّعَدِّي وَهَلْ يَنْـ ـقُضُ ما في المَهَارِقِ الأَهوَاءُ
وَاعْلَمُوا أَنَّنا وَإِيَّاكُمْ فِيـ ـمَا اشْتَرَطْنا يَوْمَ اخْتَلَفْنا سَوَاءُ

١- الثناء على الحاكم العادل :

مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمـ ـشي وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
إرَمِيٌّ بِمثْلِهِ جَالَتِ الخَيْـ ـلُ وَتَأْبَى لَخصْمِهَا الإِجْلاءُ

٢- إنصاف الخصم :

ثُمَّ حُجْراً أَعْني ابنَ أُمِّ قَطامٍ ولَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضْرَاءُ
أَسَدٌ في اللِّقاءِ وَرْدٌ هَمُوسٌ ورِبيعٌ إنْ شَمَّرَتْ غَبْرَاءُ

٣- ذم الجور والظلم :

عَنَناً باطِلاً وَظُلْماً كما تُعْـ ـتَرُ عَنْ حُجْرَةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ

رابعاً : العفّة :

من مظاهرها :

١- التعفف عن سبايا القبائل :

ثم مِلْنا على تَميمٍ فأَحرَمْـ ـنا وَفِينا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ

٢- التبرؤ من الغدر وأهله :

أَمْ جَنَايَا بَني عَتيقٍ فَإِنَّا مِنْكُمُ إِنْ غَدَرْتُمْ بُرآءُ

٣- المسامحة وغض الطرف عن الإساءة :

أَوْسَكَتُّمْ عَنَّا فكُنَّا كَمَنْ أَغْـ مَضَ عَيْناً في جَفْنِهَا الأَقذَاءُ

٤- النصيحة للأهل والأقارب :

وَولَدْنا عَمْرو بنَ أُمِّ أُنَاسٍ مِنْ قَريبٍ لَما أَتَانا الحِباءُ

مثْلُها تُخْرِجُ النصيحةُ للقَوْ مِ فَلاةٌ مِنْ دُونِها أَفْلاءُ

قد بيّن الحارث من خلال معلقته هذه أنّ "القوة ليست عدداً فحسب، بل هي إلى جانب ذلك عقلٌ يخطّط، وعزم ينفّذ، ورأي نيّر يستلهم تجارب الآخرين ويوظّفها في سبيل تحقيق غاياته وأهدافه"[٤٢].

تلك الأقسام والفروع الكثيرة لأمّات الفضائل أفسحت المجال أمام نص قصيدة الحارث بن حلزة التي أورد فيها صفات عرضية أوجسمية بين الحين والآخر. وفي اعتقادنا أنّ الفضائل والصفات العرضية أوالجسمية متممة ومكملة لبعضها بعضاً؛ "لأنّ نصوص القصائد الجاهلية تربط بين المواقف التي تبدو مختلفة ومستقلة شعورياً، ولا تتعارض مع الوحدة الشعورية التي تجعل من الموضوع كلاً واحداً، كظاهرة الحزن في معلقة امرئ القيس... فلكل معلقة ظاهرة مسيطرة من أول نصّ المعلقة إلى آخرها" (الغامدي،١٤٢٧)[٤٣]؛ فالقصيدة الجاهلية كانت "متأثرة في نظمها بواقع الحياة، فهي تتألف من عدّة أغراض يربط بينها خيط نفسي دقيق يستعيره الشاعر من تجربته في مجرى حياته"(حسن،١٩٨٨)[٤٤]، فذلك الخيط النفسي تمثله الظاهرة النفسية المسيطرة على النصّ التي تشدّ معاني القصيدة بعضها إلى بعض، وتتلون بأخلاق الشاعر المستوحاة من وسطه العام، وظروفه الخاصة المكونة لشخصيته الأدبية، والباعثة لفنه الشعري.

٤٢- شرح المعلقات العشر،د.مفيد قميحة،ص:٣١٣.

٤٣- الغامدي(محمد عبدالله)،١٤٢٧،الجانب الخلقي في المعلقات العشر،ص:١٢٤.

٤٤- حسن(رشدي علي)،١٩٨٨،شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني ،دار عمار،الأردن،ص:١٧.

الخاتمة:

فقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج منها:

- أن المعلقة تعدُّ أنموذجاً رائعاً للشعر الخطابي والسياسي.
- أن الشاعر استخدم الشعر وسيلة للدفاع عن حقوق قبيلته وانتزاعها.
- مثلت المعلقة كل أصول مظاهر القيم الخلقية وصورها.
- وثقت المعلقة للحياة الاجتماعية والسياسية وعند الجاهليين.
- أكدت المعلقة أنّ الأخلاق هي التي سيطرت على وحي الشعر وتوجهه.
- أن الأخلاق تصلح أن تكون معياراً نقدياً للحكم على القصيدة الجاهلية.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً :

١- **ابـــن الأنباري(محمـــد بـــن القاســـم، ١٩٦٣م**،شـــرح القصـــائد الســـبع الطـــوال الجاهليات،تحقيق:عبد السلام محمد هرون،ط الخامسة،دار المعارف،القاهرة.

٢- **ابن قتيبة(أبومحمد عبد الله) ١٩٥٢م**،الشعر والشعراء،تحقيق:أحمد محمد شاكر،دار المعارف،القاهرة،ج١.

٣- **أبوموسى(محمد محمد)، ١٩٩٨م** ،قراءة في الأدب القديم،مكيبة وهبة،القاهرة،

٤- **إسـماعيل(عبد العلـيم محمـد)، ٢٠١١م**،ظـاهرة الغمـوض فـي الشـعر العربـي الحديث،ط أولى،دار الفكر العربي، القاهرة.

٥- **الأصفهاني(أبو الفرج) ١٩٨٩**،الأغاني،ط أولى ،ط دار الشعب،ج١١.

٦- **البغدادي، ١٣٤٩هـ**،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،م السّعادة،القاهرة ج١.

٧- **التبريزي(أبوزكريـا يحـي)،د.ت**،شـرح القصـائد العشـر،تحقيق:محمد محـي الـدين،ط أولى،مصر.

٨- **جعفر(قدامة)،د.ت**،نقد الشعر ،تحقيق:محمد عبد المنعم خفاجي،ط ثانية،دار الكتب،بيروت.

٩- **الجمحي(محمد بن سلام)، ١٩٧٤م**،طبقات فحول الشعراء شرح:محمود محمد شاكر،ط أولى،القاهرة.

١٠- **الجندي(علي) ١٤١٢هـ**، في تاريخ الأدب الجاهلي.دار التراث.االمدينة المنورة.

١١- **حسن(رشدي علي)، ١٩٨٨م**،شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني ،دار عمار،الأردن.

١٢- **حسين(طه)د.ت**،في الأدب الجاهلي،ط ١١،دار المعارف،مصر.

١٣- **حلزة(الحـارث)، ١٩٩١م**،ديـوان الحـارث بـن حلزة،تحقيق:إميـل بـديع يعقـوب،ط أولى،دار الكتاب العربي،بيروت.

١٤- **حنفي(د.عبد الحليم)، ١٩٨٧م**،مطلع القصيد العربية ودلالتـه النفسية،الهيئة العربية للكتاب.

١٥- **الزوزني، ١٩٨٣م**،شرح المعلقات السبع،دار مكتبة الحياة،بيروت.

١٦- **شـــيخو(لويس)، ١٩٠٢**،النصـــرانية وآدابهـــا بيـــت عـــرب الجاهلية،المطبعـــة الكاثوليكية،بيروت.

١٧- **شيخو(لويس)، ١٨٩٠م**،شعراء النصرانية قبل الإسلام ، دار المشرق.

١٨- **الضبي(المفضـل)،د.ت**،المفضـليات،تحقيق،أحمد شـاكر وعبدالسـلام هـرون،ط٦،دار المعارف.

١٩- **طليمات(غـــازي)،د.ت**،الأدب الجـــاهلي قضاياه،أغراضـــه،أعلامه،فنونه،ط أولى،دار الإرشاد،دمشق.
٢٠- **الغامدي(محمد عبدالله)**،١٤٢٧هـ،الجانب الخلقي في المعلقات العشر،رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى كلية اللغة العربية.
٢١- **قميحة(مفيد)**،**١٩٩٧م**،شرح المعلقات العشر،دار الهلال،بيروت.
٢٢- **محمود(علي عبد الحليم)١٤١٨هـ**،التربية الخلقية،ط أولى،دار النشر والتوزيع الإسلامية،القاهرة.
٢٣- **مرتاض(عبـد الملـك)**،**١٩٩٨م**،السـبع المعلقات،منشـورات اتحـاد الكتـاب العرب،دمشق.
٢٤- **الميداني(أبوالفضل أحمد بن محمد)،د.ت**،مجمع الأمثال،ج١،دار القلم،بيروت.